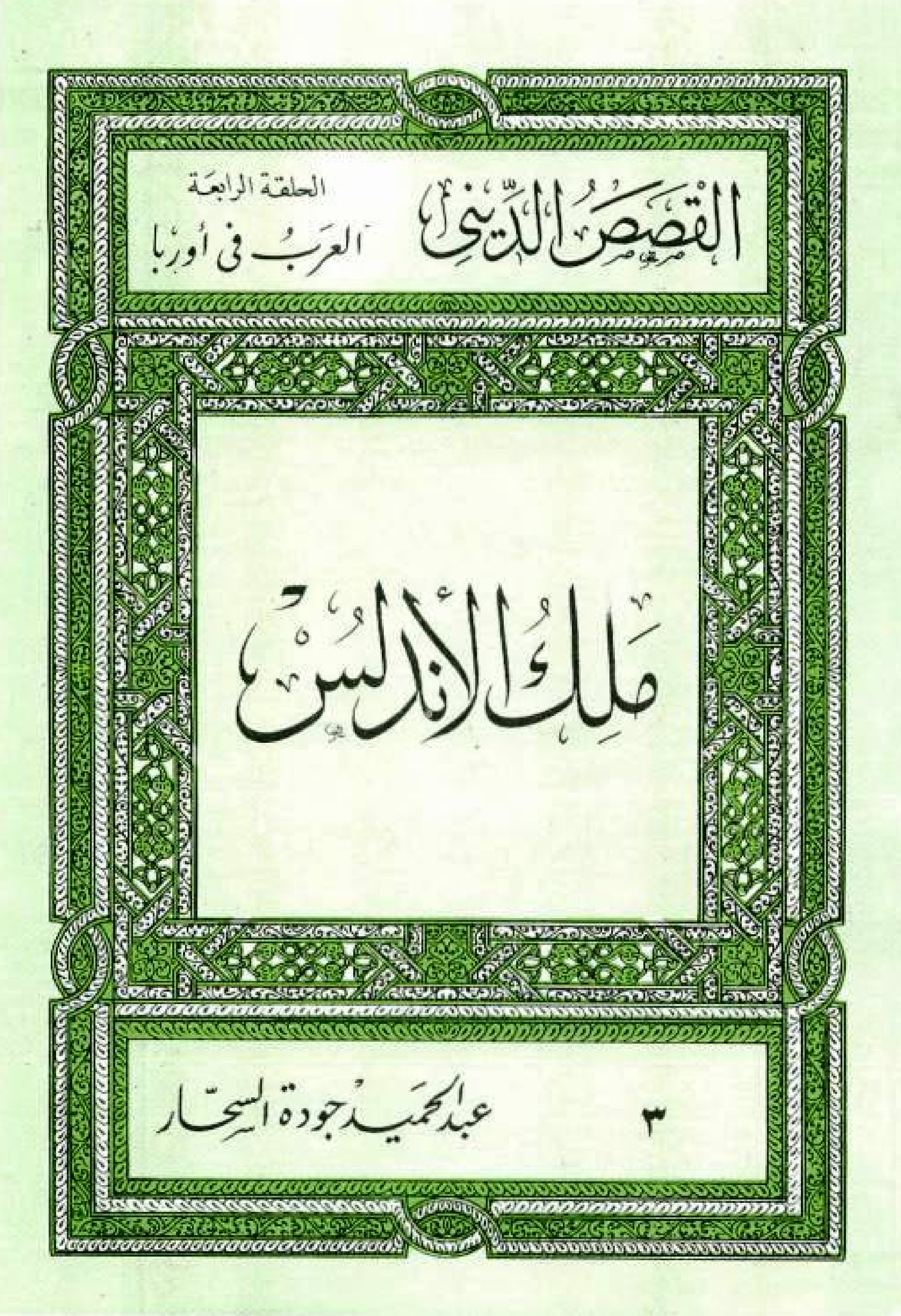

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
ملك الأندلس
عبد الحميد جودة السحار
٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ، وَكَأْسًا دِهَاقًا ، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ، جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ .

(صدق الله العظيم)

١

كان غَيطشة يحكم الأندَلُس ، وكان ملِكا عابثا ماجنا ، فراح يُشيعُ الفواحِشَ بين النّاس ، فعلّم الشّعبَ ارتكابَ الذّنوب ، واقتِرافَ الآثام ، وكان رُوذْريك (لُذْريق) أثيرًا لديه . كان يُقرّبه منه ؛ لأنّه ما كان يعصِى له أمرا ، وَكان الرِّجالُ الصّالحونَ يُبغِضون غيطشةَ وحُكمَه . فلمّا مات وترك أولادًا ضِعافا ، لم يجدوا من يعطِفُ عليهم ، لسيرةِ أبيهِم البغيضة ، فانتهز لُذْريقُ هذه الفرصة ، واستمالَ طائفةً من الرِّجالِ مالوا معه ، فانتزعَ المُلكَ من أولادِ الملكِ المُستهترِ ، ونادى بنفسِه ملِكًا على الأندَلُس .

واقْتعدَ لُذْريقُ أريكةَ المُلك ، فجاء إليه خاصّتُه ، وقالوا له :

ـ ضعْ قُفْلاً على بيتِ الحكمة .

فقال لهم :

ـ لماذا ؟

قالوا :

ـ ما من ملكٍ اعتلَى الحُكم ، إلاَّ وضعَ قُفْلاً على هذا البيت .

قال :

ـ وكمْ قُفلاً عليه ؟

ـ ستّةٌ وعِشرونَ قُفْلا .

فقال فى عزم :

ـ قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيتِ شىء ، أريد أَن أفتَحه ، لأنظرَ ما فيه لأَنّه لم يُعمل عبَثا .

فقالوا :

ـ أيُّها الملكُ صدقت ، إنّه لم يُصنَع عبثا ، ولم يُقفَلْ سُدًى ، والرَّأىُ والمصلحةُ أن تُلْقِىَ أنت أيضًا عليه قُفْلا ، أُسْوَةً بمن تقدَّمك من الملوك .

فقال فى عزم :

ـ إنَّ نفسى تُنازعُنى إلى فتحِه ، ولابدَّ لى منه .

ففزِعوا ، وقالوا له فى توسُّل :

ـ إن كنتَ تظنُّ أنَّ فيه مالا فقدِّرْه ، ونحن نجمعُ لك من أموالِنا نظيرَه ، ولا تُحدِث علينا بفتحِه حادثًا لا نعرِفُ عاقبتَه .

فقال فى إصرار :

ـ لا بدَّ لى من فتحه .

وقام إلى بيت الحِكمة ليفتَحه ، وانطلق معه رجالُه وهم يتوجَّسونَ خوفا .

٢

سار لُذْريقُ ورجالُه حتّى إذا بلغَ البيت ، أمرَ بفتحِ الأقفال ، وكان على كلِّ قُفْلٍ مِفتاحُه مُعلّقًا ، فتقدَّم الرِّجالُ بقلوبٍ واجفة ، وفتحوها وأيديهم ترتعد ، فلما فُتحَ الباب ، دخل لُذْريقُ وتلّفتَ فلم يجدْ إلاّ مائدةً عظيمة ، وتابوتا عليه قُفْلٌ ومِفتاحُه معلّق ، ففتح التّابوت ، فرأى تمثالاً من النُّحاسِ الأحمرِ والحديدِ المُصفّى ، لرجل بربرىٍّ له لِحيةٌ وفى رأسهِ ذُؤابةٌ من شعر جَعْد ، وفى رجلهِ نعْل ، وقد مدَّ يدَه اليُمنى بمفتاحِ قُفْل قابض عليه ، ووجدَ رَقًّا فأمر بنشره ، فإذا فيه : متى فُتِحَ هذا البيتُ وهذا التابوتُ المُقْفَلان بالحِكمة ، دخلَ قومُ هذا الرجلِ إلى

جزيرةِ الأندلسِ ، وذهب مُلْكُ من فيها من أيديهم ، وبَطلت حِكمتُهم .

سمِعَ لُذْريق مـا فى الـرَّق ، فنـدِم على مـا فعـل ، وانصرف مُطرِقًا مهموما .

٣

عظُم غمُّ لُذْريق ، وغمُّ شَعبه ، وأمرَ بردِّ الأقفال ، وإقرارِ الحُرَّاس ، وعاد إلى قصرِه يلفُّه قلقُهُ . ولكن سُرعان ما انقشعَ القلق ، ورُدَّ لُذْريق إلى طبعِه ، يسوسُ أمرَ رعيَّته ، ويعُبُّ كأسَ لذَّاتِه .

وكان من تقاليدِ أكابرِ الأندَلُسيِّينَ وقوَّادِهم ، أن يبعثوا أولادَهم ، الّذين يُريدونَ منفعتَهم ، والتنويهَ بهم ، إلى بلادِ الملكِ الأكبرِ بطُلَيْطِلَة ، ليَصيروا في خدمتِه ويتأدَّبوا بأدبه ، حتَّى إذا ما شبُّوا عن الطوْق ، تصاهروا ، وتزوَّج بعضُهم من بعض .

وكان لِيُلْيان ، عاملِ لُذْريقَ على سَبتة ، ابنةٌ رائعةُ الجمال ، حملها إلى قصرِ الملك ، لتعيشَ هناك عيشةَ الملوك ، وما أنْ وصلتْ فلُورندا ابنةُ يُلْيانَ إلى

القصر ، حتى بهرَ جمالُها الرائعُ كلَّ من رآها .

وفي ذاتِ ليلةٍ ، وقعتْ عينُ لُذْريقَ عليها ، فأعجبتْه ، وأحبَّها حُبًّا شديدا ، استولى على حواسِّه ، ولم يملكْ نفسَه حتّى اغْتصَبَها .

غضِبت فلُورِندا غضَبًا شديدا ، وارتمتْ في فراشِها تبكي شبابَها الضَّائع ، وفكَّرت في أن تثأرَ لنفسِها ، فلم تجدْ أمامها إلاَّ أَن تكتُبَ إلى أَبيها بما فعلَ الملِك ، ليفعلَ ما يراه ، انتقاما لشرفِهِ المثلوم .

٤

وصلتْ رسالةُ فلُورِنـدا إلى أبيهـا ، فثار ومشــى الحَنَقُ في جوفـهِ يَنْهَشُـه ، وعـزم علـى أن ينتقِـم مـن ذلك الّذى خان الأمانة ، انتقامًا رهيبا ، يَشفى غليلَ صدره ؛ ورأى قبلَ أن يبدأَ في تقويـضِ مُلكِـه ، أن يستردَّ منه ابنتَه ، فانطلقَ إلى طُلَيْطِلَة ، وبـين جوانحِـه أتُونُ نار .

دخل يُلْيانُ علـى لُذْريـقَ وقـد كتـم ثَورتـه ، وبـدا هادئا ساكنا ، ولكنَّ لُذْريقَ أوجسَ خيفة ، فقال له :

ـ ما الّذى جاء بك في هذا البردِ القارس ؟

فقال يُلْيان :

ـ ما جاء بـى إلا أنَّ زوجتـى فـى الـنَّزْعِ الأخير ، وهى فى شوق إلى رُؤْيةِ ابنتِها الّتى عندك .

- أفى مثلِ هذا البرْدِ الشَّديد تحملُ فلُورِندا ؟!

- كلُّ ما أرجوه أن أبلِّغَ زوجتى أُمْنِيَّتَها الأخيرة ، باللّه يا مولاىَ عَجِّل بإطلاق فلُورِندا .

ودخل الملكُ على فلُورِندا ، والتمسَ منها ألاّ تذكُرَ لأبيها شيئًا ممَّا جرى بينهُما ، فوعدتْه خيرا ، فأطلقَها وهو يبتسِم ، دونَ أن يدرىَ أنَّ الشيخَ الحانق ، سيُزلزِلُ الأرضَ تحتَ أقدامِه ، بعد أن يتعدَ بابنتِه ، التَّى كانت ضحيَّةَ مَلِكٍ غادر ، لا يرعىَ حُرمَة .

٥

بلغ يُليانُ سَبْتَة ، مَقرَّ حُكمهِ ، فلمْ يستقرَّ له قرار ، ولم يهدأْ له بال ، وراح يتهيَّأُ للمسيرِ إلى موسى بنِ نُصَيْر ، أميرِ إفريقِيَّة ، والوالى على البربر ، الّذين تأتلِقُ عيونُهم بالطَّمعِ فى الأندَلُس ، يحرِّضُه على غزو لُذْريق ، وخلعِه عن عرشِه .

دخلَ يُليانُ على موسى ، وراح يصفُ له حُسنَ الأندَلُس وفضلَها ، وطِيبَ المزارِع ، وكثرةَ الثّمار ، وغزارةَ المياهِ وعُذوبَتَها ، وضعفَ رجالِها ، وقلَّةَ كِفايتِهم ، وراح يُحرِّضُهُ على غزوِها ، فأطرق موسى يُفكّر ؛ إنّه لَيشتهي أنْ يغزُوَ هذه البلادَ الغنيَّة ، في سبيلِ اللّه ، ولكنّه خشِيَ أن يكونَ يُليانُ ما جاء إلاَّ لينصِبَ شرَكًا للمُسْلمين ، فقال له :

- لماذا لا تبدأُ أنت ورجالُكَ بشنِّ الغارة ، ثمَّ نرَى ما يكون ؟

وقبلَ يُليانُ أنْ يبدأَ بالهجُوم على أطرافِ الأَندَلُس ، فجمعَ جمْعًا من أهل عَملِه ، وجهَّز مَركَبيْن شحنهُما برجاله ، ثمَّ انطلق للإغارة .

أغار على ساحلِ الجزيرةِ الخضراء ، وقتل وسبَى وغَنِم ، وأقامَ بها أيَّاما ، ثم رجَعَ بمن معه سالمين . فلما رأى موسى يُسرَ الغارة ، وشاعَ الخبرُ عند المسلمين ، أنسِوا لِيُليان ، واطمأنُّوا إليه ، وملكت فكرةُ غزوِ الأندَلسِ حواسَّ موسى بنِ نُصَير .

وكتب موسى بنُ نُصَيْر إلى أمير المؤمنينَ بدِمَشق ، الوليدِ بنِ عبد الملِك ، يُخبرُه بالَّذى دعاه إليه يُليان ، من أمر الأندَلس ، ويستأذِنه فى اقتِحامها ، فكتب إليه الوليدُ : « أن خُضْها بالسَّرايا ، حتَّى ترى وتستخبرَ شأنها ، ولا تُغَرِّرْ بالمسلمين ، فى بحر شديدِ الأهوال » .

تأهَّب موسى لبعثِ السَّرايا ، فجهَّز أربعَ مراكب ، حمل فيها أربعَ مِئةِ رجل ، معهم مِئةُ فرس ، وأمَّرَ عليهم طَريفا ، وكان من مواليه من البَربَر ، وانطلقت المراكب ، حتّى إذا ما بلغتْ جزيزةً تُقابلُ جزيزةَ الأندَلُس الخضراء ، نزل بها برجالِه ، فسُمِّيتْ « جزيرةَ طَريف » ، وأقامَ بها أيّاما ، حتّى التأمَ بها أصحابُه ، ثمَّ مضى حتى أغارَ على الجزيرة ، فأصابَ سبْيًا وغنائمَ كثيرة .

وعاد طريفٌ إلى إفريقيَّة ، يسوق السَّبْيَ والغَنائم ، فخرج النَّاسُ ينظرون ، فرأَوْا سبْيًا لم يَرَوْا مثلَه حُسْنا ، ومالاً جسيما ، وأمتعةً فاخرة ، فاشتاقوا للغَزْو ، وباتوا يحلُمونَ بالحِسان والمال الوفير . وجاء يُليانُ إلى موسى يحرِّضُه على قتال لُذْريق ، ويُهوِّن له شأنَ القوم ويذكرُ له ما فعلَه ، وما فعلَه طَريف ،

فعزمَ موسى على غزوِ الأندَلُس ، وتوسيعِ رُقْعةِ الإسلام والمسلمين .

وفكَّر موسى فيمن يعهدُ إليه قيادةَ الحَمْلة ، وراح يستعرضُ فى مخيلتِه قوَّادَه ، ويَعْجُمُ عودَهم ، فوجدَ أنَّ طارقَ بنَ زِيادٍ أكفؤُهمُ ، وأَصلبُهم عودا ، فبعثَ فى طلبه .

وأقبلَ طارقٌ بقامتِه الطَّويلة ، وشعرِه الأصفر ، وعينيه الزَّرقاويْن ، فى عُدَّةِ القِتال ، فكان أَشبَه بمارد من مَردةِ الحُروب ، فقال له موسى :

ـ لقد قلَّدتك قيادَةَ المُجاهدين ، الخارجينَ لغزوِ الأندلس ، فتأهَّب للخروج ، وسيخرجُ معك يُليان .

عقد له موسى ، وبعثه فى سبعةِ آلافٍ من المسلمين ، جُلُّهم من البربر والموالى ، ليس فيهم عَربٌ إلا قليل ، وراح يُليانُ يُهيِّىءُ المراكب ، فقد حانتْ ساعةُ الانتقام ، من لُذْريق ، الذى ثَلَمَ شرفه ولطَّخ جبينَه بالعَار .